مقالة مصورة : الصديق الأُذُن

من كتاب

سوانح

تأليف
د. محمد بن إبراهيم الحمد

دار الحضارة
الطبعة الأولى

ح شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمد، محمد بن إبراهيم

سوانح/ محمد بن إبراهيم الحمد- ط١- الرياض ١٤٤٥هـ

٠٠ ص ؛ ٠٠×٠٠سم

ردمك: ٣-٦٨-٨٤٠٤-٦٠٣-٩٧٨

رقم الإيداع ١٤٤٥/٧٢٥٧

رقم الإيداع: ١٤٤٥/٧٢٥٧

ردمك: ٣-٦٨-٨٤٠٤-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

المملكة العربية السعودية - الرياض

daralhadarah@hotmail.com

الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 011 - 2702719

0551523173 @daralhadarah

زوروا متجر الحضارة

daralhadarah.net

١٢- الصديق الأُذُن

الصداقة كلمة جميلة تحمل في طيَّاتها معاني الحب، والوفاء، والإيثار، والرعاية، والتذمم، والاعتراف بالفضل، وحسن العهد، والثبات على الود وما جرى مجرى ذلك من مقتضيات الصداقة الحقة.

والصديق الحق هو من يحمل أمثال تلك المعاني السامية الرفيعة الشأن.

والكلام على الصداقة يطول[١]، ولكنه سيقتصر في هذا المقام على مسألة مهمة في هذا الباب، ألا وهي مسألة الصديق الأُذُن.

والمقصود بالأُذُن ههنا: السماع، وتَلَقِّي ما يقال.

والصديق الأُذُن: هو من يصيخ السمع لكل ما يقال عن صديقه حقًّا كان أم باطلاً؛ فيصدقه.

والأُذُنُ من الناس ـ عموما ـ لا يوصف بكمال العقل، ولا بجزالة المروءة؛ إذ العقل والمروءة يقتضيان النظر في القائل، والقول، والمقول فيه.

ولهذا ذم الله ـجل ثناؤهـ جماعةً من المنافقين في أذيتهم لرسول الله ﷺ بقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾: أي هو أُذُنٌ سامعةٌ يسمع مِنْ كلِّ أحدٍ ما يقوله؛ فَيَقْبَلُه، ويصدقه.

وهو ـ كما يقول ابن جرير ـ من قولهم: رجل أُذْنة: إذا كان يُسْرِعُ الاستماع والقبول؛ يقال: هو يَقَنٌ ويقِنٌ إذا كان ذا يقين بكل ما حُدِّث.

---

(١) كانت لي أمنيَّة قديمة أن أؤلف كتاباً عنوانه (نوازل الصداقة) ومادته حاضرة؛ فلعل ييسر ذلك.

ولهذا رَدَّ الله ـ عز وجل ـ تلك الفرية عن نبيه ﷺ بقوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾: أي قل لهم يا محمد: هو أُذُنُ خير لا أُذُنُ شرٍّ؛ فهو يسمع الخير ويصدق به؛ فيصدق بالله وحده ولا شريك له، ويصدق للمؤمنين لا الكافرين والمنافقين.

وقال بعض المفسرين: هو أذن خير: يسمع الخير ولا يسمع الشر؛ إذ الأذن هو الذي يسمع مقال كلِّ أحدٍ في الخير والشر.

أما النبي ﷺ فهو أُذُنُ خيرٍ؛ فهو مستمعُ خيرٍ ورحمةٍ؛ فهذا هو المعنى الذي تدور حوله هذه الآية.

أما المقصود بالصديق الأُذُن فهو الذي يُصغي بسمعه لكل ما يقال في صديقه دون تدقيق، أو تمحيص، أو تحقق، أو تَدَبُّر للعواقب، أو نظر في صدق القائل ومراده.

بل قد يكون القائل مجهولاً؛ حيث يوصل إلى الصديق كلاماً عن صديقه عبر وسيطٍ، أو رسالة.

وبعد ذلك ترى ذلك الصديقَ الأُذُنَ يأخذ بما وصله عن صديقه بعين الاعتبارِ والتصديقِ؛ فيرتب على ذلك مواقف إما بقطع العلاقة، أو النظر إلى صديقه بعين الريبة، أو تفسير ما يحصل منه من خلال ما سمعه عنه.

ومن هنا يقع الهجر، وتسوء العشرة، ويسود سوء الظن.

وهكذا تُنْقَضُ تلك العرى، وتتصرم المودات، وتقوم سوقُ العداوة بسبب تلك الأقاويل الظالمة، وتلك الأذن التي لم تُصْقَلْ بصقال العقل، ولم تُزَمَّ بزمام المروءة الحقة.

وتلك آفة كبرى تعتري الصداقات، فَتَفْرِيْ فيها فَرْيَهَا، وتُفْقِدُ جانباً من جوانب الإشراق والجمال في الحياة.

والذي تقتضيه الحكمةُ، ودواعي العقل والمروءة أن يعرف الإنسان حقَّ الصديق، وأن يستحضر أن الصداقة مبنية على الملاءمة، والتعارف لا المخالفة والتناكر؛ فالأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

ثم لا بد من معرفة الأسباب الحاملة على الوقيعة في صديقك عندك؛ فقد يكون الحامل على ذلك حسداً، أو لُؤْمَ طبعٍ، وقد يكون رغبةً في التشفي من الصديق؛ كي تنزل مدرجته من عينك.

وقد يكون ما يقال في صديقك صدقاً، لكن القائل ينظر إلى صديقك من خلال عينه لا من خلال عينك؛ فالذي بينك وبين صديقك من المودة، والتعاون، والتغافر قد لا يوجد شيء منه عند من ينقل إليك ما يسوء عن صديقك.

وأشد ما في ذلك أن يأتي إلى بعض الناس من لا يعرفه ولا يعرف صديقه؛ فيقع في صديقه ويزهِّده بصحبته؛ فترى ذلك الصديقَ الأُذُنَ مُلْغِياً عقله، مسايراً لذلك الواشي بكل ما يقول.

ولا ريب أن ذلك نقص في العقل، وتفريط بحقوق الصداقة.

وقد عبَّر مهيار الديلمي عن هذا المعنى أجمل تعبير، وذلك بقوله:

يقولُ العدُوُّ ويصغي الصديقُ وشرٌّ من القائلِ القابلُ

وهذا ما حدا بالحكماء أن يَحْذَرُوا من تلك الآفة، ويحذِّروا منها، قال الأعشى:

ومن يُطعِ الواشين لا يتركوا له صديقاً وإن كان الحبيبَ المقربا

وجاء رجل لمطيع بن إياس فقال: «جئتك خاطباً مَوَدَّتَك».

فقال له مطيع: «قد زوَّجتُك على شرط أن تَجْعَلَ صداقَها ألا تَسْمَعَ فيَّ مقالة الناس».

وكتب بعضهم إلى محمد بن بشار:

مَنْ لم يُرِدْك فلا تُرِدْ ... هُ وكُنْ كَمَنْ لم تَسْتَفِدْهُ

باعدْ أخاك لبُعْدِهِ ... وإذا دنا شبراً فَزِدْهُ

كم من أخٍ لك يا بنَ بشارٍ وأمُّك لم تَلِدْهُ

وأخي مناسبةٍ يسو ... ؤك عيبُهُ لم تفتقدْهُ

فأجابه بشار:

غَلَطَ الفتى في قوله ... من لَمْ يُرِدْكَ فلا تُرِدْهُ

من نافس الإخوانَ لم ... يُبْدِ العتاب ولم يُعِده

عاتبْ أخاك إذا هفا ... واعْطِفْ بودِّك واسْتَعِدْهُ

وإذا أتاك بعيبه ... واشٍ فقل: لم تعتمدُه

وبالجملة فإن المحافظة على الصديق، ومياسرته، والتغاضي عن زلاته، وقبولَه على علاته- أمارةٌ على نباوةِ الشأن، وثباتِ الود، وكمالِ العقل، ورسوخِ الوفاء على حدِّ قول أبي العلاء:

فاحفظ أخاك وإن تبين أنه ... بالي الوداد ضعيفُهُ مُختَلُّهُ

فالبُرْدُ يكفيك العيونَ دَريسُه[1] ... والعضو ينفع في الخطوب أَشَلُّه

---

(١) البُرْدُ: الثوب الخَلِق، والدَريسُ: الثوب.

وقول إبراهيم بن عباس الصولي:

يا صديقي الذي بذلت له الودَّ وأنزلته على أحشائي
إن عيناً أقذيتها لتراعيـ ـك على ما بها من الأقذاءِ
ما بها حاجةٌ إليك ولكن هي معقودةٌ بحبل الوفاء